الباب الثاني

مرحلة طفولته .. صلى الله على وسلم

* إيواء الله تعالى له صلى الله عليه وسلم.
* هدايته تعالى له صلى الله عليه وسلم.
* إغناؤه تعالى له صلى الله عليه وسلم.
* شرح صدره صلى الله عليه وسلم.
* رفع ذكره صلى الله عليه وسلم.

obeikandl.com

obeikandl.com

عـــــن:

١ ـ مرحلة طفولته.. ورعاية الله تعالى له صلى الله عليه وسلم

يقـــول:

أ ـ ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ.. ﴾(١)؟!

*** بين يدى الموضوع:**

لانكاد نجد فى القرآن آيات تتحدث عن فترة طفولته ـ صلى الله عليه وسلم ـ سوى هذا النزر اليسير.. هذه الآيات الثلاث من سورة الضحى، وآيات أربع أخر من سورة الشرح.

وحتى هذه الآيات الشريفة من سورتى الضحى والشرح لا

(١) سورة الضحى من ٦ : ٨

تتحدث صراحة عن مرحلة طفولته.. وإنما تشير إلى بعض ماكان فيها من رعاية الله ـ تبارك وتعالى ـ له، وإيوائه إياه، وهدايته.. ثم شرح صدره ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ والآيات الشريفة تشير إلى هذه المواضيع إشارة خفيفة ضمنية.. مما يجعلنا نلجأ إلى التاريخ والسنة الصحيحة نقلب صفحاتهما، ونستلهمهما حديثا موجزا عن مرحلة: طفولته.. ورضاعته.. وصباه.. صلوات الله وسلامه عليه.

* اليتيم.. الذى آواه الله:

لم يعرف التاريخ مولودا سُلطت عليه الأضواء الكاشفة منذ أن كان جنينا يستكن فى أحشاء أمه.. مثلما سُلطت على يتيم مكة محمد بن عبد الله الهاشمى القرشى.

لقد وُلد.. والعيون كلها تتطلع إلى بيت أمه آمنة بنت وهب، شريفة بنى زهرة.. لتكتحل بنور إشراقته إبَّان ولادته، والرءوس كلها تشرئب لترى ذلك المولود الذى جمع بين أطراف الشرف كله.. شرف بيت بني عبد مناف وشرف بيت بنى زهرة.. لقد وُلد والألسنة تتساءل عن موعد بزوغ شمسه.. وسطوع نجمه.. وإشراقة نوره..!!

لقد كان الوليد فى جزيرة العرب.. أيا كان نسبه وآباؤه.. يولد فى غفلة من الناس.. لايكاد يعرف بمولده إلا أقاربه الأقربون.. وكان كل مولود غالبا يعيش مغمورا، لا يشار

إليه إلا إذا شب عن الطوق، وارتدى حلة الشباب، وبَّرز فى فن الحرب أو الكلام، حينئذ يُسمع عنه ويُقال.

أما يتيم مكة.. محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقد كان الكون كله فى انتظار إشراقة نوره، وبزوغ كوكبه.. كان الناس وكأنهم على موعد مع ساعة ولادته.. القريب والبعيد منهم.

يروى ابن إسحق بسنده الذى ينتهى إلى حسان بن ثابت ـ رضى الله عنه ـ قال: والله إنى لغلام يَفَعَة[1] ابن سبع سنين أو ثمان، أعقل كل ما سمعت، إذ سمعت يهوديا يصرخ بأعلى صوته على أُطمه[2] بيثرب: يا معشر يهود..! حتى إذا اجتمعوا إليه قالوا له: ويلك.. مالك..؟!، قال: طلع الليلة نجم أحمدَ الذى ولد به..!!

أجل..! لقد وُلد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو يُشار إليه بالبنان منذ ساعة ولادته.. ولد معروف النسب.. معروف تاريخ ولادته.. فجر الاثنين، لاثنتى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول عام الفيل.. الخامس من أغسطس سنة سبعين وخمسمائة من ميلاد المسيح عليه السلام.

واستُرضع ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى بادية بنى سعد،

(١) غلام يفعة: القوى مَن طال قَدُّه.
(٢) الأطم: الحصن.

وأرضعته حليمة ابنة أبى ذؤيب عبد بن الحارث الذى ينتهى نسبه إلى سعد بن بكر بن هوازن.. وأبوه من الرضاعة: الحارث بن عبد العزى ينتهى نسبه أيضا إلى سعد بن بكر بن هوازن.. وإخوته من الرضاعة: عبد الله بن الحارث، وأُنَيْسة بنت الحارث، وخِذَامَةُ بنت الحارث.. وهى الشيماء، غلب ذلك على اسمها فلا تعرف فى قومها إلا به، وقد كانت تحضنه مع أمه إذ كان عندهم[1].

لكن هذا الوليد الذى يشار إليه بالبنان منذ فجر حياته الأولى.. ولد يتيما.. إذ مات أبوه عبد الله وهو مازال جنينا فى بطن أمه، ونورا يستكن فى أحشائها.. فآواه الله تبارك وتعالى، وألقى عليه محبة منه، فلا يراه أحد إلا أحبه ومال قلبه إليه.. وأحاطه ـ سبحانه ـ بعنايته ورعايته.. وظهر ذلك جليا فى ظهور كثير من خوارق العادة فيما وفيمن أحاط به صلوات الله وسلامه عليه.

ونترك أمه.. مرضعته.. حليمة السَّعْدِية تحدثنا عن شئ من هذه الخوارق.. فيما يحكيه عنها ابن هشام فى سيرته.. إذ يقول:

كانت حليمة بنت أبى ذؤيب السعدية أم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ التى أرضعته، تحدث أنها خرجت من بلدها

(١) سيرة ابن هشام جـ١ ص١٧٧.

مع زوجها وابن لها صغير ترضعه، فى نسوة من بنى سعد بن بكر تلتمس الرُّضَعَاءَ. . قالت: وهى فى سنة شهباء[1] لم تُبق لنا شيئا. . فخرجت على أتانٍ لى قمراء[2] معنا شارفٌ[3] لنا ماتبِض[4] بقطرة، وما ننام ليلنا أجمع من صبينا الذى معنا: من بكائه من الجوع، ما فى ثديى ما يغنيه، وما فى شارفنا ما يُغذيه، ولكنا كنا نرجو الغيث والفرج، فخرجت على أتانى تلك، فلق أرَمْتُ[5] بالركب حتى شق ذلك عليهم ضعفا وعجفا، حتى قدمنا مكة نلتمس الرضعاء، فما منا امرأة إلا وقد عُرض عليها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فتأباه إذا قيل لها: إنه يتيم. . ! وذلك أنا إنما كنا نرجو المعروف من أبي الصبي، فكنا نقول: يتيم!! وما عسى أن تصنع أمه وجده. . ؟؟، فكنا نكرهه لذلك، فما بقيت امرأة قدمت معى إلا أخذت رضيعا غيرى، فلما أجمعنا الانطلاق قلت لصاحبى: والله إنى لأكره أن أرجع من بين صواحبى ولم آخذ رضيعا، والله لأذهبن إلى ذلك اليتيم فلآخُذَنَّهُ، قال: لا عليك أن تفعلى، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة. . قالت: فذهبت إليه فأخذته، وما حملنى على

---

(١) فيها جدب وقحط.

(٢) يميل لونها إلى الخضرة. .

(٣) الناقة المسنة.

(٤) لاترشح بنقطة من اللبن. . .

(٥) أى: ألف من معها ضعفها وتأخرها. .

أخذه إلا أنى لم أجد غيره، فلما أخذته رجعت به إلى رحْلى، فلما وضعته فى حجرى أقبل عليه ثدياى بما شاء من لبن، فشرب حتى رَوِىَ، وشرب معه أخوه حتى روى، ثم ناما، وماكنا ننام معه قبل ذلك، وقام زوجى إلى شارفنا تلك فإذا إنها لحافل(١)، فحلب منها ماشرب، وشربت معه حتى انتهينا ريًّا وشبعا، فبتنا بخير ليلة.

قالت: يقول صاحبى حين أصبحنا: تَعلَّمِى والله ياحليمة لقد أخذت نسمةً مباركة..! فقلت: والله إنى لأرجو ذلك.. ثم خرجنا وركبت أتانى وحملته عليها معى، فوالله لقطعت بالركبَ، ما يقدر عليها شئ من حمرهم، حتى إن صواحبى ليقلن لى: يا ابنة أبى ذؤيب.. ويحك..!! اربعى(٢) علينا.. أليست أتانك التى كنت خرجت عليها..؟، فأقول لهن: بلى.. والله إنها لهى هى، فيقلن: والله إن لها شأناً..!؟

قالت: ثم قدمنا منازلنا من بلاد بنى سعد، وما أعلم أرضا من أرض الله أجدَب منها، فكانت غنمى تروح علىَّ حين قدمنا به معنا شباعا لُبنًا(٣)، فنحلب ونشرب، وما يحلب إنسان قَطرة لبن ولا يجدها فى ضَرْع.. حتى كان الحاضرون

(١) ممتلئة الضرع من اللبن.
(٢) انتظرى حتى ندركك.
(٣) غزيرات اللبن.

من قومنا يقولون لرعيانهم: ويلكم..!! اسرحوا حيث يسرح راعى بنت أبى ذؤيب، فتروح أغنامهم جياعا ماتبض بقطرة لبن، وتروح غنمى شباعا لُبَّنًا..! فلم نزل نتعرف من الله الزيادة والخير حتى مضت سنتاه، وفصلته[1]، وكان يشب شبابا لا يشبه الغلمان، فلم يبلغ سنتيه حتى كان غلاما جفرا[2].

لعلك رأيت معى - قارئى العزيز - أن بركة هذا المولود السعيد النبى المنتظر، قد غيرت حال حليمة وقومها من ضيق فى العيش إلى سعة ورخاء.. وأضفى وجوده بينهم عليهم سعادة وبهجة..! لقد كان حقا: نسمةً مباركة.. تتناثر البركة منها على كل من وما يحيط بها.. فيتحول الحال إلى أحسن وأفضل..!

***

وتموت الأم.. السيدة آمنة.. وعمر نبينا ست سنوات، حين عودتها من زيارة أخواله من بنى عدى بن النجار.. ماتت بين مكة والمدينة.. بالأبواء.. فكفله جده.. لكن الجد يموت وهو - صلى الله عليه وسلم - فى الثامنة من عمره.

---

(١) فطمته.

(٢) غليظا شديدا.

لقد أصبح يتيما حقا.. بكل ما تعنى كلمة (يتم) من معنى..! فلا أب يعطف ويحنو.. ويهذب ويؤدب ويربى.. ولا أم تعوض برحمتها عطف الأب وحنانه.. ولا جد يحل محل الأب والأم.. وإنما صار يتيم الأب.. يتيم الأم.. يتيم الجد.. لقد فعل الله ـ تبارك وتعالى ـ به ذلك.. ليصنعه على عينه.. ليكلأه بعنايته.. ويحوطه برعايته.. يُروى أن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال: لما توفى والد رسول الله، قالت الملائكة: إلهنا وسيدنا.. بقى نبيك يتيما.. فقال تعالى: « **أنا له حافظ ونصير**»[1].

ولقد آواه رب العالمين جنينا.. وطفلا.. وصبيا.. وشابا.. ورجلا..! وصدق الله العظيم إذ يقول ممتنا عليه بذلك: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴾[2]..؟!

إن عهد البشرية باليتم.. أنه يكون مصدر تشرد.. وضياع.. وانحراف.. لكن يتيمنا هذا.. صار فيما بعد معلم الإنسانية الأول.. ومربى الشعوب قاطبة.. فمن أدَّبه.. من ربَّاه..؟؟

---

(١) رواه البيهقى.

(٢) سورة الضحى: ٦.

أدبه ورباه من آواه..! رب العزة ـ تبارك وتعالى ـ هو الذى تولى تأديبه.. وتهذيبه.. وتربيته.. حتى صار ـ وهو اليتيم ـ المعلم والمربى، والهادى إلى الصراط المستقيم، يقول ـ صلى الله عليه وسلم ـ: **«أدبني ربي فأحسن تأديبي»**[1].

* من مظاهر تأديب الله له:

ولعل واحدا يريد أن يسأل قائلا: إذا كان رب العالمين سبحانه هو الذى تولى تأديب حبيبه ومصطفاه من خلقه، إمام أنبيائه وخاتم مرسليه محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فما مظاهر هذا التأديب..؟ وما آية تلك التربية..؟؟

الحق.. أن الله ـ تبارك وتعالى ـ أدب حبيبه محمدا تأديبا معنويا.. وتأديبا حسيا، والتأديب المعنوى بعصمته إياه، بهدايته إلى الصراط المستقيم، والسؤال ينصب على التأديب الحسى، وإليك بعض مظاهره:

أ ـ مارواه ابن سعد، والسهيلى، وما روى فى الصحيح: «من أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين بناء الكعبة كان يحمل الحجارة وإزاره مشدود عليه، فقال له العباس: ياابن أخى،

(١) الجامع الصغير جـ١ ص٢١ عن ابن مسعود رضى الله عنه.

لو جعلت إزارك على عاتقك، ففعل، فسقط مغشيا عليه، ثم قال: إزارى . . إزارى . . !! فشد عليه إزاره، وقام يحمل الحجارة»(١).

وفى رواية أوردها السهيلى: «أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما سقط ـ مغشيا عليه ـ ضمه العباس إلى نفسه، وسأله عن شأنه، فأخبره ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه نودى من السماء أن اشدد إزارك يامحمد، وإنه لأول ما نودى».

ويقول ابن إسحق: وكان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما ذكر لى، يحدث عما كان الله يحفظه به فى صغره، وأمر جاهليته، أنه قال: **«لقد رأيتنى فى غلمان قريش ننقل الحجارة لبعض ما يلعب به الغلمان، كلنا قد تعرى وأخذ إزاره فجعله على رقبته يحمل عليه الحجارة، فإنى لأُقبل معهم كذلك وأدبر إذ لكمنى لاَكِمٌ ما أراه لكمة وجيعة، ثم قال: شُدَّ عليك إزارك، قال: فأخذته وشددته علىَّ ثم جعلت أحمل الحجارة على رقبتى، وإزاري علىٌ من بين أصحابى»**.

ها أنت ذا . . ترى معى أن عين الله ـ عز وجل ـ كانت لا تغفل عن حبيبه محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى فجر

---

(١)سيرة ابن هشام، والروض الأنف للسهيلى.

طفولته، وأن يده[1] ـ سبحانه وتعالى ـ كانت تقوِّم اعوجاجه، وتهذب سلوكه في هذه السن المبكرة.. وأن أسلوب التربية حينئذ كان يتلاءم وطفولته.. وأنه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ أُخذ بنوع من الشدة، بلغ معه أن وقع مغشيا عليه.. وهذا يتناسب تماما مع السن المبكرة للطفل..!

فلما تقدمت به السن ـ صلى الله عليه وسلم ـ وشب عن الطوق، وأصبح فتى.. عُومل بأسلوب آخر.. نراه فيما يأتي:

ب ـ ماروى في الصحيحين عن علي ـ كرم الله وجهه ـ أنه قال: سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول: **«ما هممت بشيء مما كان أهل الجاهلية يهمون به إلا ليلتين، كلتاهما عصمني الله ـ عز وجل ـ فيهما، قلت ليلة لبعض فتيان مكة ونحن في رعاء غنم أهلها: ألا تبصر لي غنمي حتى أدخل مكة أسمر فيها كما يسمر الفتيان..؟ فقال: بلى، قال: فدخلت حتى جئت أول دار من دور مكة، سمعت عزفا بالغرابيل والمزامير، فقلت: ما هذا..؟ قالوا: تزوج فلان فلانة، فجلست أنظر، وضرب الله علي أذني،**

(١) لا أقصد حقيقة العين واليد، تعالى الله عن الشبيه والمثيل، وعن مشابهة الحوادث.

فوالله ما أيقظني إلا مس الشمس، فرجعت إلى صاحبي، فقال: ماذا فعلت..؟ فقلت: مافعلت شيئا..! ثم أخبرته بالذي رأيت، ثم قلت له ليلة أخرى: أبصر لي غنمي حتي أسمر.. ففعل، فدخلت، فلما جلت مكة سمعت مثل الذي سمعته تلك الليلة، فسألت؟ فقيل: نكح فلان فلانة.. فجلست أنظر.. فضرب الله علي أذني فوالله ما أيقظني إلا مس الشمس..!. فرجعت إلي صاحبي، فقال: مافعلت..؟، فقلت: لا شئ.. ثم أخبرته الخبر..! فوالله ماهممت ولا عدت بعدها لشئ من ذلك حتى أكرمني الله - عز وجل - بنبوته..!!

ج - ماروُى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - عن أم أيمن، قالت: كانت بُوانة صنما تحضره قريش تعظمه، تنسك له النسائك، ويحلقون رءوسهم عنده، ويعكفون عنده يوما إلى الليل، وذلك يوما فى السنة.. وكان أبو طالب يحضره مع قومه، وكان يكلم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يحضر ذلك العيد مع قومه، فيأبى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ذلك، حتى رأيت أبا طالب غضب عليه، ورأيت عماته غضبن عليه يومئذ أشد الغضب، وجعلن يقلن: ماتريد يامحمد أن تحضر لقومك عيدا.: ولا تكثر لهم جمعا..!

قالت: فلم يزالوا به حتى ذهب معهم إلى عيدهم.. فغاب عنهم ما شاء الله، ثم رجع إلينا فزعا، فقالت له عماته: مادهاك؟ قال: إنى أخشى أن يكون بى لمم[1]..!، فقلن: ماكان الله ليبتليك بالشيطان وفيك من خصال الخير ما فيك.. فما الذى رأيت..؟

قال: «**إني كلما دنوت من صنم منها تمثل لي رجل أبيض، يصيح بي: وراءك يامحمد.. لا تمسه..!!**»، قالت: فما عاد إلى عيد لهم حتى تنبأ.[2]

تلك نماذج حية ترينا كيف أدبه ربه ـ سبحانه وتعالى ـ، وكيف تولى تربيته وتهذيبه.. حتى كان كما يقول عنه ابن إسحق:

[فشب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والله تعالى يكلؤه[3] ويحفظه، ويحوطه من أقذار الجاهلية، لما يريد به من كرامته ورسالته.. حتى بلغ أنه كان رجلا أفضل قومه مروءةً، وأحسنَهم خلقا، وأكرمهم حسبا، وأحسنهم جواراً، وأعظمهم

(١)مس من جنون.
(٢) رواه البيهقى.
(٣) يحفظه.

حلما، وأصدقهم حديثا، وأعظمهم أمانة، وأبعدهم من الفُحْش والأخلاق التى تدنس الرجال تنزها وتكرُّما، حتى ما اسمه فى قومه إلا «الأمين» لما جمع الله فيه من الأمور الصالحه[1]] اهـ.

بل صار ـ وهو اليتيم ـ كما قال عنه العزيز الحكيم ـ سبحانه وتعالى ـ فى محكم كتابه. ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[2].

ولاغرو..! فهو يتيم عاش فى كنف أحكم الحاكمين، رب العالمين ـ عز وجل ـ رباه فأحسن تربيته.. وأدبه فأكمل أدبه.. وهذب سلوكه وخلقه حتى أضحى فريدا فى شمائله، وحيدا فى سجاياه..!، وصدق الله العظيم إذ يقول:

﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴾[3] ؟!

أجل..! لقد كان ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ يتيم الأبوين.. فلم يضيعه مولاه ـ سبحانه ـ بل جعل له مأوى يأوى إليه عند عمه أبى طالب، فكفله صغيرا، ونصره كبيرا.. وذبَّ عنه رسولا... ولحكمة ما.. ظل عمه على

(١)سيرة ابن هشام جـ ١ ص١٩٩.
(٢) سورة القلم: ٤.
(٣) سورة الضحى: ٦، ٧.

دين قومه حتى تقع هيبته فى نفوسهم، ويحترموه كواحد منهم، ويقدروه كزعيم من زعمائهم.. فلا تمتد أيديهم إلى محمد بسوء أو أذى. فلما مات عمه.. وتجرأ عليه سفهاء مكة وجهالها.. آواه إلى الأنصار من الأوس والخزرج.. فكانوا نعم المأوى، ونعم النصير..!

لقد.. كان ـ صلى الله عليه وسلم ـ يعيش فى بيئة موبوءة بكل الرذائل والمفاسد.. فعصمه الله ـ تعالى ـ من رذائل القوم ومفاسدهم.. وهداه إلى الطهر.. والعفاف.. والمُثُل العليا..!

* الفقير.. الذى أغناه الله:

إنه.. إمام الأنبياء وخاتم المرسلين، صفوة الله من خلقه..محمد بن عبد الله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ ذاك الذى ولد يتيما، ولم يرث عن أبيه سوى شويهات لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة عدا.. وأَمَةٌ هى أم أيمن ـ رضى الله عنها ـ..!

لقد تفتحت عيناه وهو فى أحضان اليتم الحقيقى، والفقر المدقع.. فلا أب يعول وينفق، ولا أم تحنو وتعطى، ولا جد

يعوض سعى الأب وسخاء الأم، فهل ضاع محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو يسبح فى بحار اليتم والفقر..؟ ويتعرض لأمواجهما المتلاطمة الباردة..؟؟ كلا.. كلا..!! وكيف يضيع من نشأ فى كنف رب رحيم..؟؟ واجد.. ماجد.. واسع.. كريم..؟؟

لقد هيأ له بيتا يضمه ويأويه.. هو بيت عمه أبى طالب، وصدرا عطوفا حنونا.. هو صدر ذلك العم الذى آثره على أبنائه، وخصه بعطفه.. وحبه.. ورحمته دونهم جميعا، وراح يضفى عليه مالم ينله ولد من والده.

لقد أصبح ذلك العم كَلِفًا به، محبا له، حبا يفوق حبه لكل أبنائه، لا يطيق فراقه، ولا يصبر على بعده عنه.. وهاهوذا يصطحبه فى غدوه ورواحه.. وحله وترحاله.. لقد أضحى صغيرنا اليتيم الفقير يأنس بعمه أنسا لم يأنسه ابن بأبيه، وتقر عينه لقربه منه، وينشرح صدره لاصطحابه إياه..! حتى أصبح ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو فى سنه تلك المبكرة وَلِعًا بهذا القرب، حريصا على أن يرافقه حيثما حل.. وكان ذلك العم الرحيم لا يألو جهدا فى رضا ابن أخيه، ولا يرد له طلبا فى اصطحابه إياه.. حتى ولو كان سفرا بعيد الشقة.. كثير المتاعب.. وليس أدل على ذلك من هذه القصة التى ساقها ابن إسحق كدليل على تعلق الصغير

بعمه، وحرص العم على رضا هذا الصغير الحبيب الأثير لديه.. وهى:

* قصة بَحِيرَى:

يقول ابن إسحق: إن أبا طالب خرج فى ركب تاجرا إلى الشام، فلما تهيأ للرحيل، وأجمع المسير، صَبَّ[1] به رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فرق له، وقال: والله لأخرجن به معى، ولا يفارقنى ولا أفارقه أبدا.. فخرج به معه.

فلما نزل الركب بُصرى من أرض الشام، وبها راهب يقال له: بحيرى فى صومعة له، وكان إليه علم أهل النصرانية، ولم يزل فى تلك الصومعة منذ زمن طويل.. فلما نزلوا ذلك العام ببحيرى، وكانوا كثيرا ما يمرون به قبل ذلك فلا يكلمهم ولا يعرض لهم، حتى كان ذلك العام، فلما نزلوا به قريبا من صومعته صنع لهم طعاما كثيرا، وذلك عن شئ رآه وهو فى صومعته.. إذ يزعمون أنه رأى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو فى صومعته فى الركب حين أقبلوا وغمامة تظلله من بين القوم..!

قال: ثم أقبلوا فنزلوا فى ظل شجرة قريبا منه، فنظر إلى الغمامة حين أظلت الشجرة، وتهصَّرت[2] أغصان الشجرة

(١) من الصبابة وهى رقة الشوق، أى: اشتد ميله إليه ورق قلبه له.

(٢) أى: مالت وتدلت.

على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى استظل تحتها.. فلما رأى ذلك بحيرى نزل من صومعته، وقد أمر بذلك الطعام فصنع، ثم أرسل إليهم، فقال: إنى صنعت لكم طعاما يامعشر قريش، فأنا أحب أن تحضروا كلكم صغيركم وكبيركم وعبدكم وحركم.. قال له رجل منهم: والله يابحيرى.. إن لك لشأنا اليوم، ماكنت تصنع هذا بنا، وقد كنا نمر بك كثيرا..!، فما شأنك اليوم..؟ قال له بحيرى: صدقت، قد كان ماتقول، ولكنكم ضيف وقد أحببت أن أكرمكم وأصنع لكم طعاما فتأكلوا منه كلكم، فاجتمعوا إليه، وتخلف رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من بين القوم ـ لحداثة سنه ـ فى رحال القوم تحت الشجرة، فلما نظر بحيرى فى القوم ولم ير الصفة التى يعرف ويجد عنده، قال: يا معشر قريش لا يتخلفن أحد منكم عن طعامى، قالوا له: يابحيرى.. ماتخلف عنك أحد ينبغى له أن يأتيك إلا غلاما، وهو أحدث القوم سنا، فتخلف فى رحالهم، فقال: لاتفعلوا.. ادعوه فليحضر هذا الطعام معكم. فقال رجل من قريش مع القوم: واللات والعزى إن كان للؤم بنا أن يتخلف ابن عبد الله بن عبد المطلب عن طعام من بيننا، ثم قام إليه فاحتضنه، وأجلسه مع القوم..!

فلما رآه بحيرى جعل يلحظه[1] لحظا شديدا، وينظر إلى أشياء من جسده، وقد كان يجدها عنده من صفته، حتى إذا فرغ القوم من طعامهم وتفرقوا قام إليه بحيرى، فقال له: ياغلام.. أسألك بحق اللات والعزى إلا ما أخبرتنى عما أسألك عنه، وإنما قال له بحيرى ذلك لأنه سمع قومه يحلفون بهما، فزعموا أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: «**لا تسألني باللات والعزي شيئا، فوالله ما أبغضت شيئا قط بغضهما**»، فقال بحيرى: فبالله إلا ما أخبرتنى عما أسألك عنه، فقال له: «سلنى عما بدا لك»، فجعل يسأله عن أشياء من حاله: من نومه.. وهيئته.. وأموره، فجعل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يخبره، فيوافق ذلك ما عند بحيرى من صفته، ثم نظر إلى ظهره فرأى خاتم النبوة بين كتفيه على موضع صفته التى عنده..!

فلما فرغ أقبل على عمه أبى طالب، فقال له: ما هذا الغلام منك..؟ قال: ابنى، قال له بحيرى: ماهو بابنك، وما ينبغى لهذا الغلام أن يكون أبوه حيا، قال: فإنه ابن أخى.. قال: فما فعل أبوه..؟ قال: مات وأمه حبلى به، قال: صدقت فارجع بابن أخيك إلى بلده، واحذر عليه من يهود، فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ماعرفت ليبغُنَّه شرا، فإنه

(١) يدقق النظر فيه.

كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم، فأسرع به إلى بلاده، فخرج به عمه أبو طالب سريعا حتى أقدمه مكة حين فرغ من تجارته بالشام.. اهـ.

***

* **عود على بدء:**

هذه قصة بَحيرى ذكرناها هاهنا ونحن بصدد إقامة الدليل على تعلق الفتى بعمه، وحرص العم على رضا هذا الصغير اليتيم، وعلى أن يرافقه فى سفره وإقامته، فى حِلِّه وترحاله.. وإن كان مكانها غير هذا الموضع، فهى ذكرت معترضة بين ثنايا هذا الموضوع: الفقير.. الذى أغناه الله.. وها نحن أولاء نعود إلى موضوعنا، فنقول ـ والله المستعان:

هيأ الله ـ تبارك وتعالى ـ لهذا الصغير ـ اليتيم.. الفقير ـ صلى الله عليه وسلم ـ بيت عمه أبى طالب.. فآواه.. وأوسع له من حبه وسخائه وماله.. فأغناه...!

فلما صار فتى جفرا[1].. عمل فى مهنة الأنبياء قبله.. ألا وهى رعى الغنم.. إذ أنه مامن نبى إلا واشتغل برعى الغنم

(١) صبيا قويا.

فى صباه تمهيدا لرعى قطعان البشرية الضالة..! وقيادتها حتى تعود إلى حظيرة الإيمان..!!

فلما بلغ مبلغ الشباب اشتغل بالتجارة.. فأغناه الله تعالى بما حصله من أجر على رعى الغنم.. ثم على العمل بالتجارة، وأبعد عنه بهذا شبح الفقر.. وذل الحاجة..!!

وشاء الله ـ تبارك وتعالى ـ أن يوسع دائرة غناه، فساق إليه تجارة خديجة وملكه زمامها.. فنال ربحا وفيرا، ومالا كثيرا..!!

* خروجه في تجارة خديجة:

يقول الدكتور هيكل فى كتابه (حياة محمد) ص ١٢٢:

[لما علم أبو طالب أن خديجة ـ صاحبة المال الوفير والتجارة الواسعة ـ تجهز لخروج تجارتها إلى الشام، رأى أن يجد لابن أخيه سببا للرزق أوسع مما يجيئه من أصحاب الغنم التى يرعى، فناداه وكان يومئذ فى الخامسة والعشرين من عمره المديد، وقال له: يا ابن أخى.. أنا رجل لا مال لى وقد اشتد الزمان علينا، وقد بلغنى أن خديجة بنت خويلد استأجرت فلانا ببكرين، ولسنا نرضى لك بمثل ما أعطته، فهل لك أن أكلمها..؟ قال محمد: «ماأحببت»، فخرج أبو

طالب إليها، فقال لها: هل لك ياخديجة أن تستأجرى محمدا..؟، فقد بلغنا أنك استأجرت فلانا ببكرين، ولسنا نرضى لمحمد دون أربعة أبكار، فقالت: لو سألت ذلك لبعيد بغيض فعلتها، فكيف وقد سألته لحبيب قريب..؟ وعاد العم إلى ابن أخيه يذكر له الأمر، ويقول له: هذا رزق ساقه الله إليك..!

خرج محمد ـ عليه السلام ـ مع ميسرة غلام خديجة، وانطلقت القافلة فى طريق الصحراء إلى الشام مارة بوادى القرى، ومدين، وديار ثمود، وبتلك البقاع التى مر بها محمد مع عمه أبى طالب وهو فى الثامنة عشرة من عمره وأحيت هذه الرحلة فى نفسه ذكريات الرحلة الأولى..] اهـ.

أجل..! لقد كانت تجارة خديجة رزقا ساقه الله إلى محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأغناه به من فقر. ووقاه من شر المسغبة[1]، ودرأ به[2] عنه مذلة الحاجة، وكفل[3] له حياة كريمة، وعيشة رغدة[4] هانئة...!

---

(١) الفقر.

(٢) دفع.

(٣) ضمن.

(٤) واسعة.

واستطاع نبي المستقبل بأمانته، وصدقه، ومقدرته أن يتجر بأموال خديجة تجارة أوفر ربحا مما فعل غيره من قبل، فلما آن لهم أن يعودوا ابتاع لخديجة من تجارة الشام كل ما رغبت إليه أن يأتى به.

ولم تخل تلك الرحلة الأولى من مفاجآت.. أذهلت ميسرة.. وجذبته بقوة وعنف إلى «الأمين» فأحبه من كل قلبه.. وكانت تلك المفاجآت المذهلة .. ذلك الخلق العظيم الذى يتحلى به محمد.. وتلك الشمائل العطرة التى امتاز بها عن غيره.. ومنها ما حدث به ابن هشام عن ابن إسحق.. إذ يقول:

* راهب يخبر ميسرة بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم:

[فنزل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى ظل شجرة قريبا من صومعة راهب من الرهبان.. فاطَّلع الراهب إلى ميسرة: فقال له: مَن هذا الرجل الذى نزل تحت هذه الشجرة..؟، قال له ميسرة: هذا رجل من قريش من أهل الحرم، قال له الراهب: مانزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبى[1]] اهـ.

---

(١) ابن هشام جـ١ ص٢٠٤

* وميسرة يخبر خديجة بسجاياه وشمائله:

لقد أخذ ميسرة بتلك السجايا الحميدة التى لم يرها لبشر ما. وزاد من دهشته ما أخبره به ذلك الراهب.. فازداد ميسرة حبا لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتقديرا له.. وكان ميسرة موصلا جيدا لما رآه وسمعه.. لقد أنبأ سيدته بمحصلة تلك الرحلة.. وانطباعاته عن محمد ذاك الذى فاق التجار فى حكمته النادرة، وفكره الواسع، ورأيه الصائب.. وفاق البشر أجمعين بشمائله الرقيقة، وسجاياه الحميدة، وأخلاقه العظيمة، وسلوكياته القويمة..!

وأُخذت سيدة مكة وشريفتها، وأثرى أثريائها، بما رأت وما سمعت.. لقد رأت محمدا وهو على بعيره يكسوه الجمال والجلال، والهيبة والوقار.. واستمعت إلى عذب حديثه، وحلو كلامه، وحسن تعبيره.. كما استمعت إلى خادمها ميسرة رفيق محمد فى رحلته فسمعت منه كلاما عن محمد يصل إلى حد الخيال.. فأخذت بهذا وذاك.. وودت لو تزوجت هذا الصادق الأمين.. ولِمَ لا..؟ أليس هو سليل المجد والشرف..؟ بلى..!، وهو فوق هذا يتحلى بما لم يتحل به بشر..!!

* سفارة.. وزواج:

كانت خديجة ـ رضى الله عنها ـ مع ماوهبها الله تعالى

من مال وجمال، وحسب وشرف.. حكيمة حازمة لبيبة.. وسرعان ما استنتجت مما رأت وسمعت أن محمدا على غير مثال، وأنه لابد له من شأن وخطر.. وأن تلك فرصة يجب اقتناصها.. فأرسلت نفيسة بنت علية إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ خفية لترغبه فى الزواج منها.. ونترك ابن هشام ليحدثنا عن سفارتها تلك الناجحة.. إذ يقول[1]:

روى عن نفيسة بنت علية أنها قالت: أرسلتنى خديجة خفية إلى محمد بعد أن رجع فى عيرها من الشام، فقلت له: يامحمد.. مايمنعك أن تتزوج..؟ فقال: مابيدى ما أتزوج به، قلت: فإن عفيت ذلك، ودعيت إلى المال والجمال والشرف والكفاية ألا تجيب..؟، قال: فمن هى..؟ قلت: خديجة، قال: وكيف لى بذلك..؟ قلت: علىَّ.. وأنا أفعل..!

فذهبت فأخبرتها، فأرسلت إليه ـ عليه السلام ـ أن ائت ساعة كذا وكذا، فأرسلت إلى عمها عمرو بن أسد ليزوجها، فحضر، ودخل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى عمومته[2].. ولما تم الإيجاب والقبول، أمرت السيدة خديجة

(١) سيرة ابن هشام جـ ١ ص٢٠٥

(٢) ذكر ابن هشام اختلاف الرواة فيمن زوجه وزوجها.. ولم أذكر ذلك اختصارا.

بشاة فذبحت، واتخذت طعاما، ودعت عمها عمرا، وبعثت إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأتى ومعه حمزة بن عبد المطلب، وأبو طالب، ورؤساء مضر، فأكلوا، ثم خطب أبو طالب فقال: «الحمد الله الذى جعلنا من ذرية إبراهيم، وزرع إسماعيل، وضئضئ[1] مَعَدّ.. وعنصر مضر.. وجعلنا حضنة بيته وشوكة حرمه.. وجعل لنا بيتا محجوجا.. وحرما آمنا.. وجعلنا الحكام على الناس.. ثم إن ابن أخى هذا محمد بن عبد الله لا يوزن به رجل إلا رجح، وإن كان فى المال قُل فالمال ظل زائل، وأمر حائل، ومحمد ممن قد عرفتم قرابته، وقد خطب خديجة بنت خويلد، وبذل لها من الصداق ماآجله وعاجله كذا من مالى، وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم، وخطر جليل جسيم...!

ولما أتم أبو طالب خطبته تكلم ورقة بن نوفل، فقال: «الحمد الله الذى جعلنا كما ذكرت، وفضلنا على ماعددت، فنحن سادة العرب وقادتها، وأنتم أهل ذلك كله، لاتنكر العشيرة فضلكم، ولا يرد أحد من الناس فخركم وشرفكم.. وقد رغبنا فى الاتصال بحبلكم وشرفكم، فاشهدوا علىَّ معاشر قريش بأنى قد زوجت خديجة بنت خويلد من محمد ابن عبد الله، على أربعمائة دينار.

---

(١) أى: أصل معد.

ثم سكت ورقة، وتكلم أبو طالب، وقال: قد أحببت أن يشركك عمها، فقال عمها: اشهدوا علىَّ يا معشر قريش أنى قد أنكحت محمد بن عبد الله خديجة بنت خويلد، وشهد على ذلك صناديد قريش.. ! اهـ.

***

لقد ساق الله تعالى إلى حبيبه محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ رزقا واسعا بزواجه من خديجة بنت خويلد بن أسد ابن عبد العزى بن قصى بن كلاب، وهو الأب الخامس لرسول الله.. إذ هو ـ صلى الله عليه وسلم ـ محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب.. فيجتمع وإياها فى قصي بن كلاب.

أجل.. ! لقد ساق الله تعالى إلى اليتيم.. الفقير.. محمد... المال والجمال.. والحسب والنسب، فأغناه بذلك غنى واسعا.. أغناه عاطفيا.. وأغناه نفسيا.. وأغناه ماديا.. وصدق الله العظيم.. إذ يقول: ﴿ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴾[1]

يقول القرطبى فى تفسيره لهذه الآية الشريفة من سورة الضحى: أى فقيرا لا مال لك. «فأغنى» أى: أغناك

(١) سورة الضحى: ٨.

بخديجة ـ رضى الله عنها ـ يقال: عال الرجل يعيل عيلة: إذا افتقر.. وقال مقاتل: فرضاك بما أعطاك من الرزق، وقال الكلبى: قنَّعك بالرزق، وقال ابن عطاء: ووجدك فقير النفس، فأغنى قلبك. اهـ.

ولا مشاحَّة فى أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان فقيرا.. قانعا بما رزقه الله تعالى.. راضيا به كل الرضا.. وفى أن زواجه من خديجة كان سببا مباشرا فى غناه نفسيا وماديا.. إذ أن خديجة ـ رضى الله عنها ـ صارت له ـ صلى الله عليه وسلم ـ الزوجة الوفية المحبة الصادقة فى حبها، المحبوبة حبا لا مزيد عليه.. ثم كانت وزيرة صدق له.. وأول من آمن به.. وصدق دعوته.

لقد واسته بمالها.. وآزرته بحسبها ومكانتها.. وأعانته على تحمل الأمانة.. وتبليغ الرسالة.. ووقفت إلى جواره حتى آخر لحظة فى حياتها..!!

وعـــن:

٢ ـ شرح صدره.. ورفع ذكره صلى الله عليه وسلم

يقـــول:

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾(١)

* إعداده ـ صلى الله عليه وسلم ـ لتحمل الأمانة الكبرى:

إن محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ حقا بشر.. لكنه ـ أيضا ـ ليس كسائر البشر..!

لماذا...؟ .. لأنه سيُحَمَّل الأمانة الكبرى.. وسوف تُناط به الدعوة العظمى.. وسيكون النبى الخاتم.. صاحب الرسالة الخاتمة.. بل وإمام الأنبياء..!!

---

(١) سورة الشرح من ١: ٤.

إذن..! لابد من إعداده إعدادا خاصا، يجعله أهلا لما خلق من أجله.. قادرا على القيام بمهام ماسيكلف به.. صبورا على ما سيلاقى من عنت وصد، وأذى واضطهاد..!!

بلى..! وقد كان.. وإلى جانب هام من ذلك يشير ربنا ـ سبحانه وتعالى ـ فى حديثه القرآنى عن إمام أنبيائه وخاتم مرسليه، ومصطفاه من خلقه، حبيبه محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيقول ممتنا عليه، ومعددا نعمه وآلاءه:

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ .. ﴾(١)

***

كيف شرح الله صدر حبيبه محمد ـ صلى الله عليه وسلم..؟ شرح الله ـ سبحانه وتعالى ـ صدره بأن جعله واسعا، فسيحا، قادرا على تحمل أعباء الدعوة إليه، صابرا علي مايلاقى من أذى واضطهاد، وصد عن سبيل الله وإعراض عن الإسلام.

شرح ـ تعالى ـ صدره بأن ملأه أناة وحلما، ولينا

(١) سورة الشرح من ١ : ٣.

ورحمة.. فكان يقابل الإساءة بالإحسان.. والفظاظة والقسوة بالحلم واللين والرحمة.. كما حدث يوم أن ذهب إلى الطائف ليعرض نفسه ودعوته على قبائلها، فردوه ردا قبيحا، وطردوه شر طردة، وسلطوا عليه العبيد والسفهاء يقذفونه بالحجارة حتى سالت الدماء الزكية الطاهرة من جسده الشريف، وحتى امتلأ نعله بدمه الزكى الطاهر، وجاء جبريل، وملك الجبال، ليقول له ملك الجبال: لو أمرتنى أن أحمل عليهم هذين الأخشبين لفعلت، لكن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يرفع رأسه ويديه إلى ربه ـ سبحانه ـ ويقول: «اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون..»

وفى رواية «اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون».. فيقول جبريل: « صدق من سماك الرءوف الرحيم[1]..!!»

شرح صدره.. بأن ملأه حكمة، وعلما، ونورا.. فوسع هذا الصدر الشريف تكاليف الإسلام كلها.. ووعى آدابه وتعاليمه بل حفظ كلام الله ـ عز وجل ـ وكأنه منقوش على صفحة هذا القلب الطاهر بقلم القدرة الإلهية.. فلم ينس منه كلمة ولم يضيع منه حرفا.. بل وعاه وأداه على خير وجه.

هذا شرح معنوى.. وهناك شرح مادى حسى، وهو شق

(١) الشفاء.. للقاضى عياض.

صدره الشريف.. الذى تكرر عدة مرات، وتحدث عنه النبى الخاتم أكثر من مرة:

* شق صدره صلي الله عليه وسلم:

وكما كان شرح صدره ـ صلى الله عليه وسلم ـ إعدادا له ليستطيع تحمل الأمانة الكبرى، والقيام بالرسالة العظمى. الرسالة الخاتمة.. فقد كان شق صدره الشريف تجهيزا وإعـدادا ـ أيضا ـ للقيام بهذا الدور العظيم.

وحينما نتصفح حياته الشريفة منذ ولادته إلى بعثته..ثم إسرائه ومعراجه.. نجد أن عملية شق الصدر تكررت مرارا.. وكانت أحيانا كمقدمة للقيام بعمل خارق عظيم.. وتعالوا لنـتعرض بعض هذه الحالات، ونستقيها من مواردها.

أ ـ حدثت المرة الأولى.. ورسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما يزال طفلا يلعب مع أترّابه وإخوته من الرضاعة فى بادية بنى سعد بن بكر، وقد تجاوزّ سنه العامين بأشهر.. وعنها يتحدث ابن إسحق، فيروى بسنده عن حليمة، إذ تقول:

فلم يبلغ سنتيه حتى كان غلاما جفرا[1].. فقدمنا به على

(١) قويا شديدا.

أمه، ونحن أحرصُ شئ على مكثه فينا، لما كنا نرى من بركته، فكلمنا أمه، وقلت لها: لو تركت بُنَيَّ عندى حتى يغلظ فإنى أخشى عليه وباء مكة، فلم نزل بها حتى ردته معنا، فرجعنا به.. فوالله إنه ـ بعد مقدمنا بأشهر ـ مع أخيه لفى بَهْم[1] لنا خلف بيوتنا، إذ أتانا أخوه يشتد، فقال لى ولأبيه: ذاك أخى القرشى قد أخذه رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاه فشقا بطنه، فهما يسوطانه[2].

قالت: فخرجت أنا وأبوه نحوه، فوجدناه قائما منتقعا[3] وجهُه، فالتزمته والتزمه أبوه، فقلنا له: مالك يابنى..؟ قال: جاءنى رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعانى وشقا بطنى، فالتمسا فيه شيئا لا أدرى ماهو..!، فرجعنا إلى خبائنا، وقال لى أبوه: ياحليمة.. لقد خشيت أن يكون هذا الغلام قد أصيب، فألحقيه بأهله قبل أن يظهر ذلك به..!

ويسوق ابن إسحق هذا الحديث برواية أخرى، ينتهى سندها إلى خالد بن معدان الكلابى، أن نفرا من أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قالوا له: يارسول الله

---

(١) الصغار من الغنم، واحدها: بهمة.

(٢) من معانى السوط: خلط الشئ بعضه ببعض، ولعل المعنى هنا: كأنهما يخلطان بعضه ببعض.

(٣) متغيرا.

أخبرنا عن نفسك..؟ قال: أنا دعوة أبى إبراهيم، وبُشرى أخى عيسى، ورأت أمى حين حملت بى أنه خرج منها نور أضاء لها قصور الشام، واسترضعت فى بنى سعد بن بكر، فبينا أنا مع أخ لى خلف بيوتنا نرعى بهما لنا، إذ أتانى رجلان عليهما ثياب بيض بِطَسْت من ذهب مملوءة ثلجا فأخذانى فشقّا بطنى، واستخرجا قلبى فشقاه، فاستخرجا منه علقة سوداء فطرحاها، ثم غسلا قلبى وبطنى بذلك الثلج حتى أنقياه.. ثم قال أحدهما لصاحبه: زنه بعشرة من أمته، فوزننى بهم، فوزنتهم، ثم قال: زنه بمائة من أمته، فوزننى بهم فوزنتهم، ثم قال: زنه بألف من أمته، فوزننى بهم، فوزنتهم، فقال: دعه عنك، فوالله لو وزنته بأمته لوزنها..!»

ب ـ فلما بلغ ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ العاشرة من عمره. تكرر شق صدره الشريف مرة ثانية لاستخراج الغل والحسد وحشوه رأفة ورحمة.. يروى عبد الله ابن الإمام أحمد بسند ينتهى إلى أبى بن كعب، أنه قال: كان أبو هريرة جريئا على أن يسأل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن أشياء لا يسأله عنها غيره، فقال: يارسول الله.. ما أول مارأيت من أمر النبوة..؟ فاستوى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ جالسا، وقال: «لقد سألت يا أبا هريرة.! إنى فى الصحراء ابن عشر سنين وأشهر، وإذا بكلام فوق رأسى،

وإذا رجل يقول لرجل: أهو.. هو..؟؟ فاستقبلانى بوجوه لم أرها قط، وأرواح[1] لم أجدها من خلق قط، وثياب لم أرها على أحد قط، فأقبلا إلىَّ يمشيان حتى أخذ كل واحد منهما بعضدى لا أجد لأحدهما مسًّا..!، فقال أحدهما لصاحبه: أضجعه.. فأضجعانى بلا قصر ولا هصر[2]، فقال أحدهما لصاحبه: افلق صدره.. فهوى أحدهما إلى صدرى ففلقه فيما أرى بلا دم ولا وجع، فقال له: أخرج الغل والحسد، فأخرج شيئا كهيئة العلقة، ثم نبذها فطرحها، فقال له: أدخل الرأفة والرحمة، فإذا مثل الذى أخرج شبه الفضة، ثم هز إبهام رجلى اليمنى، فقال: اغد واسلم.. فرجعت بها أعدو رقة على الصغير، ورحمة للكبير».

جـ - والمرة الثالثة.. كان شق صدره كمقدمة، وتجهيز وإعداد لرحلتى الإسراء والمعراج.. حتى يتمكن - صلوات الله وسلامه عليه - من القيام بهذه الرحلة الخارقة للعادة.. ومن الصعود إلى الملأ الأعلى.. ومن لقاء الملائكة ورؤيتهم بملائكيتهم، ويسمع منهم ويفهم، ويعى ما يشاهد وما يسمع.. يروى الإمام مسلم بسند ينتهى إلى أنس بن مالك -

---

(١) جمع ريح؛ لأن (ريح) قد يجمع على أرواح.. مختار الصحاح.

(٢) أى: لم أشعر بأننى أجبرت على الإضجاع ولم أشعر بأن جسمى انثنى رغما عنى.

رضى الله عنه ـ أن مالك بن صعصعة حدثه، أن نبى الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حدثهم عن ليلة أسرى به، قال: «بينما أنا فى الحطيم مضطجعا إذ أتانى آت فجعل يقول لصاحبه: الأوسط بين الثلاثة[1]، فأتانى فشق ما بين هذه إلى هذه[2]، فاستخرج قلبى ـ قال: فأتيت بطست من ذهب مملوء إيمانا وحكمة فغسل قلبى، ثم حشى، ثم أعيد.. ثم أتيت بدابة دون البغل وفوق الحمار.. الخ».

د ـ وتكرر الداعى إلى ذلك .. فتكرر شق الصدر.

***

إن شرح صدره.. صلى الله عليه وسلم .. أو شقه.. كان إعدادا وتجهيزا لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليستطيع مع بشريته تحمل أعباء الدعوة الرهيبة.. تلك الأعباء التى تزيد على الجبال ثقلا وضخامة.. وليتمكن من تلك المواقف التى لا طاقة للبشرية بها.. لهذا يمتن عليه ربه ـ عز وجل ـ بهذا القول الكريم:

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴾[3]؟!

(١) كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يرقد بين حمزة وجعفرين أبي طالب..
(٢) يعنى من ثغرة نحره إلى عانته.
(٣) سورة الشرح: ١ ـ ٣.

ب ـ ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾(١)

* مِن رفع ذكره.. أن قرن سبحانه بين اسمه واسمه

لقد رفع الله ـ تبارك وتعالى ـ ذكر حبيبه محمد ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ فقرن اسمه ـ عز وجل ـ باسمه.. فما من أحد فى مشارق الأرض ومغاربها يذكره ـ سبحانه ـ إلا ويذكر اسم محمد معه، وما من مؤذن يعتلى منارة فى أقصي الأرض أو أدناها إلا ويذكر اسم محمد، مقترنا باسم رب العزة:

«أشهد أن لا إله إلا الله.. أشهد أن محمدا رسول الله». بل ما من أحد يصلى فرضا أو نفلا فى أية بقعة من بقاع المعمورة إلا ويذكره ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى تشهده..! قال مجاهد: لا أذكر إلا ذكرت معي: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله ..!

وقال قتادة: رفع الله ذكره فى الدنيا والآخرة، فليس خطيب ولا متشهد، ولا صاحب صلاة إلا ينادى بها: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله..!

ويقول القرطبى.. رُوى عن الضحاك عن ابن عباس، أنه

---

(١) سورة الشرح: ٤

قال: يقول الله له: لا ذكرتُ إلا ذكرتَ معى فى الأذان والإقامة والتشهد، ويوم الجمعة على المنابر، ويوم الفطر، ويوم الأضحى، وأيام التشريق، ويوم عرفة، وعند الجمار، وعلى الصفا والمروة، وفى خطبة النكاح، وفى مشارق الأرض ومغاربها، ولو أن رجلا عبد الله ـ جل ثناؤه ـ وصدَّق بالجنة والنار وكل شئ ولم يشهد أن محمدا رسول الله، لم ينتفع بشئ وكان كافرا..!

وروى ابن جرير بسند ينتهى إلى أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه، أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: «أتانى جبريل، فقال: إن ربى وربك يقول: كيف رفعتُ ذكرك..؟، فقلت: الله أعلم..! قال: إذا ذُكِرْتُ ذُكِرْتَ معى»

وروى ابن أبى حاتم بسند ينتهى إلى ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أن رسول الله ـ صلي الله عليه وسلم ـ قال: «سألت ربى مسألة وددت أنى لم أسأله، قلت: قد كان قبلى أنبياء منهم من سخرت له الريح، ومنهم من يحيى الموتى، قال: يامحمد.. ألم أجدك يتيما فآويتك..؟! ألم أرفع لك ذكرك..؟!، قلت: بلى يارب..!!»

وروى أبو نعيم فى دلائل النبوة بسند ينتهى إلى أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: «لما فرغت مما أمرنى به من أمر السموات والأرض، قلت: يارب.. إنه لم يكن نبى قبلي إلا وقد

كرمته: جعلت إبرهيم خليلا.. وموسى كليما.. وسخرت لداود الجبال.. ولسليمان الريح والشياطين.. وأحييت لعيسى الموتى.. فما جعلت لى..؟ قال: أو ليس قد أعطيتك أفضل من ذلك كله..؟ إنى لا أذكر إلا وذكرت معى.. وجعلت صدور أمتك أناجيل يقرأون القرآن ظاهرا، ولم أعطها أمة، وأعطيتك كنزا من كنوز عرشى: لاحول ولاقوة إلا بالله العلى العظيم».

ورحم الله حسان بن ثابت ورضى عنه، إذ قال يمدح رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بقصيدته المشهورة، ومنها هذه الأبيات:

أغر عليه للنبوة خاتم
من الله من نور يلوح ويشهد
وضم الإله اسم النبى إلى اسمه
إذا قال فى الخمس المؤذن أشهد
وشق إليه من اسمه ليجله
فذو العرش محمود وهذا محمد

* ونوّه به فى الكتب السابقة:

ومن رفع ذكره - صلوات الله وسلامه عليه - أن نوه الله - تعالى - به فى كتب الأولين، وأخذ العهد والميثاق من الأنبياء والمرسلين أن يؤمنوا به وينصروه إن هو ظهر فى حياتهم

وعهدهم.. وذكر اسمه وصفاته فى الكتب المنزلة على رسله وأنبيائه.. فكان الناس قاطبة على علم تام باسمه، وصفاته، ومولده، ومهجره، وكان أشدهم معرفة به ـ صلى الله عليه وسلم ـ الأحبار.. والرهبان.. والكهان..!

أما الأحبار من يهود، والرهبان من النصارى، فقد عرفوه قبل ولادته ومبعثه بقرون عديدة مما وجدوه فى التوراة والإنجيل، وأما الكهان من العرب، فأتتهم به الشياطين من الجن فيما تسترق من السمع، إذ كانت تستمع وهى لا تحجب عن ذلك بالقذف من النجوم.. وكان الأحبار والرهبان والكهان كثيرا ما يتحدثون عن ذلك النبى أمام العرب من أهل مكة وغيرها.. لكنهم كانوا لا يلقون إلي حديثهم هذا بالا.. إلى أن بعث ـ صلى الله عليه وسلم ـ وإليك صورا من حديث الأحبار.. والرهبان.. والكهان:

١ ـ نبوءة شق وسطيح به صلي الله عليه وسلم:

رأى ملك من ملوك اليمن وهو ربيعة بن نصر رؤيا هالته وفَظِع بها، فطلب تأويلها، فدل على شق بن مصعب بن يشكر، وسطيح ربيع بن ربيعة بن مازن، فأولاها له كل على حدة ومن غير أن يسمع أو يعرف أحدهما ماذا قال الآخر:

وكان من قول سطيح لهذا الملك.. إن مُلْك إرم بن ذى يزن باليمن لن يدوم.. قال له الملك: ومن يقطعه..؟ قال سطيح: نبي زكي.. يأتيه الوحى من قبل العلى..!

قال الملك: ومن هذا النبى..؟ قال: رجل من ولد غالب[1] ابن فهر بن مالك بن النضر، يكون المُلك فى قومه إلى آخر الدهر..!

أما شق.. فكان من قوله بعد أن تنبأ بزوال ملك بيت ذى يزن، حينما سأله الملك قائلا: أفيدوم سلطان بيت ذى يزن أم ينقطع..؟ قال شق: بل ينقطع برسول مُرسل، يأتى بالحق والعدل، بين أهل الدين والفضل، يكون الملك فى قومه إلى يوم الفصل[2]..!!

ب - وبسببه - صلى الله عليه وسلم - انصرف تبُّع عن يثرب وعمر البيت الحرام وكساه:

كان تبع ملكا من ملوك اليمن، واسمه: تُبَان أسعد أبو كرب.. أقسم أن يخرب يثرب، ويستأصل أهلها، ويقطع نخلها، لقتلهم ابنًا له غيلة.. فجاءه حَبْران من أحبار يهود بني قريظة، عالمان راسخان فى العلم حين سمعا بما يريد من إهلاك المدينة وأهلها، فقالا له: أيها الملك لا تفعل.. فإنك إن أبيت إلاما تريد حيل بينك وبينها، ولم تأمن عليك عاجل العقوبة..! فقال لهما: ولم ذلك..؟ فقالا: هى مهاجر نبي يخرج من هذا الحرم من قريش فى آخر الزمان.. تكون داره وقراره.

---

(١) غالب هذا هو الجد العاشر لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

(٢) ابن إسحق بتصرف كبير.

فتناهى عن ذلك.. بل وبنى الكعبة، وكساها الديباج والثياب اليمنية الفاخرة.. وهو أول من كسا البيت.. وأوصى به ولاته من جُرهم[1]..!

ج ـ وعنه تحدث كاهن جَنْبٍ:

يقول ابن إسحق: كانت جَنْب بطنا من اليمن، وكان لهم كاهن فى الجاهلية. فلما ذُكر أمر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وانتشر فى العرب قالت له جنب: انظر لنا فى أمر هذا الرجل.. واجتمعوا له فى أسفل جبَله، فنزل عليهم.. ثم قال لهم: أيها الناس.. إن الله أكرم محمدا واصطفاه.. وطهر قلبه وحشاه..!!، ثم اشتد فى جبله راجعا من حيث جاء.

د ـ وأسلم الكاهن سواد بن قارب:

كان سواد بن قارب هذا كاهنا فى الجاهلية يأتيه تابع من الجن، فحدثه عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حديثا واضحا صريحا، فركب ناقته وأقبل على رسول الله بالمدينة وأعلن إسلامه..

يروى ابن هشام فى سيرته مارواه محمد بن كعب القرظى، إذ قال: بينا عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ ذات يوم جالس إذ مرَّ به رجل، فقيل: ياأمير المؤمنين..

---

(١) ابن إسحق، بتصرف كبير.

أتعرف هذا المارَّ..؟ قال: ومن هذا..؟ قالوا: هذا سواد بن قارب الذى أتاه رِئيه ـ أى: تابعه من الجن ـ الذى يرى له، أتاه بظهور النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ..

فقال عمر لسواد: أأنت على ما كنت عليه من كهانتك..؟؟ فغضب، وقال: ما استقبلنى بهذا أحد منذ أسلمت ياأمير المؤمنين.. فقال عمر له: سبحان الله..!! ماكنا عليه من الشرك أعظم مما كنت عليه من كهانتك، فأخبرنى ما نبأ رئيك بظهور رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم..؟؟

قال: نعم ياأمير المؤمنين.. بينما أنا ذات ليلة بين النائم واليقظان إذ أتانى رئيِّى فضربنى برجله، وقال: قم ياسواد بن قارب، واسمع مقالتى واعقل إن كنت تعقل.. إنه بعث رسول من لؤى بن غالب.. يدعو إلى الله ـ عز وجل ـ وإلى عبادته، ثم أنشد يقول:

عجبت للجن وتَطلاَبها
وشَدِّهاَ الْعِيسَ بأقتابها
تهوي إلى مكة تبغى الهدى
ماصادق الجن ككَذَّابِهاَ..!
فادخل إلى الصفوة من هاشم
ليس قداماها كأذنابها

فقلت : دعنى أنام، فإنى أمسيت ناعسا، فلما كانت الليلة الثانية والثالثة، جاءنى، فقال لى فيهما: إنه بعث رسول من لؤى بن غالب يدعو إلى الله ـ عز وجل ـ وإلى عبادته.. وكان كل مرة ينشد[1] شعرا.. فقمت فقلت: قد امتحن الله قلبى، فرحلت ناقتى، ثم أتيت المدينة، فإذا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه حوله، فلما رآنى، قال: مرحبا يا سواد بن قارب، قد علمنا ما جاء بك، فقلت: يارسول الله.. قد قلت شعرا، فاسمع مقالتى يارسول الله .. فقال: هات.. فأنشأ يقول:

أتاني رئيي بعد هدءٍ ورقدةٍ
ولم يك فيما قد بلوت بكاذب
ثلاث ليالٍ قوله كل ليلة
أتاك رسولٌ من لؤى بن غالب
فشمَّرت عن ساقى الإزار ووسّطتْ
بى الذِّعْلبُ الوضاء بين السباسب[2]
فأشهد أن الله لارب غيره
وأنك مأمون على كل غائب
وأنك أدنى المرسلين وسيلة
إلى الله يا بن الأكرمين الأطايب

(١) لم أذكر شعر الرئى خشية الإطالة
(٢) الذعلب: الناقة السريعة والسباسب جمع سَبْسَبْ وهي: المفازة..

فمرنا بما يأتيك ياخير مرسل

وإن كان فيما جاء شيبُ الذوائب[1]

وكن لى شفيعا يوم لا ذو شفاعة

سواك بِمُغْنٍ عن سواد بن قارب

قال: ففرح النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو وأصحابه بمقالتى فرحا شديدا حتى رؤى الفرح فى وجوههم، وضحك رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى بدت نواجذه، وقال: «أفلحت ياسواد»، فرأيت عمر ـ رضى الله عنه ـ التزمه، وقال: كنت أشتهى أن أسمع هذا الحديث منك، فهل يأتيك رئيك اليوم؟ قال: أما منذ قرأت القرآن فلا.. ونعم العوض كتاب الله عز وجل..!!.اهـ

***

هكذا.. رفع الله ـ تبارك وتعالى ـ ذكر حبيبه محمد فى الأولين وفى الآخرين.. وصلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾[2].

---

(١) الذوائب: جمع ذؤابة، وهى: من كل شئ أعلاه، والمقصود بها هنا: شعر مقدم الرأس

(٢) سورة الشرح: ٤